

هل جزاء الإحسان إِلَّا الإحسان



﴿الإحسان دليل على النبل، واعتراف بالفضل، وعرفان للجميل، وقيام بالواجب، واحترام للمنعم، ينبع عن الصفاء، وينطق بالوفاء، ويترجم عن السخاء؛ بالإحسان يُشتري الحب، ويُخطب الود﴾، وتُكسب النفوس، ويُهيمن على القلوب، وتستعبد الأفئدة. الإحسان عطاء بلا حدود، وبذل بلا تردد، وإنعام دونما من، وإكرام لا يلحقه أذى، و﴿الله تعالى أَيْ إِحْسَانٍ إِلَّا حَسَنَهُ﴾، وأي إنعام إلا إنعامه، وأي كرم إلا كرمه، وأي جود إلا جوده، وأي فضل إلا فضله، وأي إحسانه، وأي إنعام إلا إنعامه، وأي ببر إلا ببره، خلق الإنسان في أحسن تقويم وصوّره لطف إلا لطفه، وأي عطاء إلا عطاوه، وأي ببر إلا ببره، فأحسن صورته، وامتد إليه إحسانه وهو نطفة في ظلمات ثلاث، وعَمَّهُ بِإِحْسَانِهِ طَفَلاً، وأنتبه نباتاً حسناً، ورباه بنعمه وأحسن مثواه، وأحسن إليه شاباً يا فعاً وعاقلاً راشداً، وشيخاً مسناً، ووصى الإنسان بوالديه إحساناً، وأمره الله تعالى بالإحسان مع كل شيء وإلى كل شيء، وفي كل شيء، ورتب عليه عظيم الأجر، وبديع القدر، ووافر الإكرام (وَإِنْ تَعْمُدْ وَأَبْتَغْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُمَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْدُسْ نَصْرِي بَكَ مِنَ الدُّرْزِيَّةِ وَأَدْسِنْ كَمَا أَدْسَنَ اللَّهُمَّ إِلَيْكَ) (القصص/ 77)، (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن/ 60). الأولى أن يقابل الإحسان بالإحسان رغم أنّ البوّن شاسع، والفرق كبير بين إحسان وإنحسان، فماذا تساوي قطرة من إحسان منك مع بحور الفضل وأنهار الإحسان وقنوات العطاء منه جلّ وعلا، بل وإن إحسانك ما هو إلا من إحسانه إليك

ولطفه بك أن هداك لذاك فهو المحسن الغفور الودود.

إلهي إذا ما عشتُ في الأرض محسناً

فأنت الذي يسرّني وهدى تبني

فليس بفيض من ذكائي ولا فضلي

إلى الخير والإحسان يا واسع البذل

الإحسان من أفضل منازل العبودية، بل هو حقيقتها ولبها وروحها وأساسها، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فهو لب الإيمان، وروح الإسلام، وكمال الشريعة، وهو يدخل في سائر الأقوال والأفعال والأحوال، وأعظم درجات الإحسان هي الإحسان مع الله جل جلاله ثم إحسان المرء مع نفسه وأهله وسائر المخلوقين، حتى يشمل البهائم والعماد، يقول (ص) : "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة". وقد ورد في الحديث الصحيح: "أن امرأة بغياء رأت كلباً في يوم حار يُطيف بيئر، فدأدمع لسانه من العطش فنزعته له بموقفها فغفر لها". وكل أصول وفروع المعاشرة وآدابها، وكل قوانين التعامل ترجع إلى الإحسان، فهو يشمل محيط الحياة كلها في علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة، وعلاقاته بالبشرية جموعاً، بل وعلاقاته بسائر المخلوقات. والمحسن محبوب من المخلوقين، ومحبوب من الخالق، ولذلك كانت منزلة المحسنين عند الله تعالى عظيمة، ومرتبتهم كبيرة، ودرجاتهم عالية، قال تعالى: (هَلْ^١ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا إِحْسَانٌ)، أي ليس من جراء إنعامي عليكم بالإيمان والتوجه إلا الجنة، وبهذه الكلمة تعالى أزمه مع المحسنين بتوفيقه وحفظه وتأييده، فقال: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمَذْكُورِينَ اذْقَوْا وَالْمُحْسَنُونَ هُمْ مُحْسَنُونَ) (النحل/ 128). وأعلن جل جلاله محبته للمحسنين في أكثر من آية فقال: (وَاللَّهُمَّ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران/ 134)، وأخبر تعالى أن رحمته قريبة من المحسنين، فقال: (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) (الأعراف/ 56)، وطمأن المحسنين بأن إحسانهم محفوظ، وعملهم مشكور، وفعلهم مبرور، فقال: (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (هود/ 115)، بل أدخل السرور عليهم، وأعلن البشرة لهم، فقال في آيات كثيرة: (وَبَشِّرْ

الْمُحْسِنِينَ) (الحج/37). بل لقد أعطى على الإحسان ما لم يعط على غيره فقال تعالى: (لَتَدْرِي أَنَّهُمْ سَادُوا الْجُنُونَ وَرَبِّيَادَةً وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَاتِرٌ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (يونس/26). فهو تعالى يخبر أنَّ من أحسن في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدلته إِلَّا الحسنة في الدار الآخرة، وأسكنه الجنة وأعطاه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وزاده مقابل إحسانه زيادة عظمى أكمل مما مضى، وأجمل مما ذكر، وهي النظر إلى وجهه الكريم جلَّ وعلا، وتأمل هذا الجزء البديع والمنزلة الرفيعة التي استحقها المحسن لأنَّه عاش عمره، وقضى حياته وهو يعبد إِلَّا كأنه يراه، ويراقبه في كل حركة وسكنة وكأنه ماثل أمامه يستحيي منه، ويخاف بطشه ويخشى عقابه، ويقدره حق قدره فحقق إِلَّا له الرؤية، وأنعم عليه بأن كشف له الحجاب لينظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم.قرأ (ص) هذه الآية: (لَتَدْرِي أَنَّهُمْ سَادُوا الْجُنُونَ وَرَبِّيَادَةً) (يونس/26)، وقال: "إذا دخل أهل الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند إِلَّا موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يتحقق مواتریننا، ويبنيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحرنا عن النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فيننظرون إليه، فواه ما أعطاهم إِلَّا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقرَّ لأعينهم"، (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ زَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا زَاطِرَةٌ) (القيمة/22-23).

والثواب العظيم في جنة المولى
كل نفس تحظى بما تشتهيه
لبن سائغٌ وشهودٌ مصفىٌ
وفيها يكون الرضى والخلودُ
حورٌ عينٌ فيها وطلعٌ نصيدٌ
ولدى ربِّ الكريم المزیدُ

المصدر: كتاب إِلَّا.. أهل الثناء والمجد